المقاومة في المنطق الحضاري

2010/5/29م

الدكتور محمد شقير

ليست المواجهة التي تخوضها المقاومة مع إسرائيل مواجهة بين آلة عسكرية بيد المقاومة وأخرى بيد المؤسسة العسكرية الإسرائيلية وإنما هي أبعد من ذلك أي هي مواجهة بين عقلين عقل مقاوم بما يختزنه من ثقافة وقيم ووعي ومخزون حضاري وبين عقل إسرائيلي بما يحملة أيضاً من ثقافة ووعي وغير ذلك، حيث تغدو الآلة العسكرية مجرد أداة تتوقف فعاليتها ومستوى الاستفادة منها وتحقيق للهدف على العقل الكامن من خلقها والقائم عليها، ورغم أهمية هذه الأداة وضرورة تطويرها تبقى إحدى عناصر هزه المواجهة بين المقاومة وإسرائيل صحيح أن إسرائيل عملت – وما زالت– على حرمان كل الأطراف التي كانت تواجهها من الآلة العسكرية وخصوصاً المتطورة منها، لكن مسح المواجهة الأبعد ليس هنا، إز أن إسرائيل عملت على هدفين اثنين، إن نجحت على تحقيقها أو احدهما فإنه لن يضرها كثيراً ان يكون لدى الطرف الآخر شيء من القدرات العسكرية، وهزان الهدفان هما: شل الإرادة وكي الوعي، فإن أصيبت الإرادة بالشلل عندها لن يكون أمراً مضراً على الكيان الإسرائيلي أن يمتلك الطرف المعادي شيئاً من القدرات العسكرية، أو إزا افتقد للرؤية الواضحة في: من العدو ومن الصديق وكيفية المواجهة واستراتيجية صناعة النصر عندها لن يغير الإسرائيلي كثيراً بعض من السلاح المرمى في مستودعاته والزي سوف يتجاوزه الزمن بعد بضع من السنين.

لقد اعتمدت إسرائيل في حروبها أنماطاً عسكرية من الحرب الخاطفة والقدرات النارية الهائلة والتكتيكات التي تحمل في مضمونها رسالة إنكم عاجزون عن هزيمة إسرائيل حتى لو اجتمعتم كعرب وغير عرب، فأنتم غير قادرين على مواجهة إسرائيل وإلحاق الهزيمة بها وأن العرب معها لن تجر عليكم إلا الهزائم والدمار وتعريض سلطانكم للزوال، وهكذا فقدت فعلها الانتصارات العسكرية السريعة التي حققها الجيش الإسرائيلي في إقناع العديد من العرب بعجزهم وأتت الاجتياحات السهلة والواسعة للأراضي العربية أكلها في غرس هذه الفكرة في وعي العديد من العرب أنكم غير قادرين على هزيمة إسرائيل.

لقد اجتاحت إسرائيل وعي العديد من العرب، لم تقتصر في اجتياحها على أرض عربية وعملت إسرائيل على شل الإرادة العربية والانتصار عليها، ولم تقتصر في سعيها على الانتصار على الآلة العسكرية للعرب.

لقد اعتقد العديد من العرب أن إسرائيل هي كيان لا يُهزم في بنيتها وفي إمكانياتها وفي عقلها وقدراتها وكونها مدعومة من الغرب وخصوصاً الولايات المتحدة الأميركية، بل كونها تمثل نموذجاً غربياً متقدماً ومتفوقاً على محيطه الغربي والإسلامي، ولذا لا مناص من التخلي عن خيار المواجهة معها – لنه وبحسب ما غرسته إسرائيل في وعيهم- خيار عقيم لا يوصل إلى نتيجة سوى الهزيمة، وقد عملت العديد من الجهات والمؤسسات المرتبطة وكذلك الدال على تكريس هذا الفهم في وعي الأنظمة العربية بل والمجتمعات العربية حيث لعب الإعلام دوراً كبيراً في هذا المجال.

إن عملية اجتياح الوعي الغربي والعمل على كي هذا الوعي أدى إلى حالة تراجع في الواقع المواجه للكيان الصهيوني إلى أن بدأت حركة المقاومة في لبنان على أثر الاجتياح الإسرائيلي الذي أدى إلى احتلال ثاني عاصمة عربية بعد القدس، وما أدى إليه فعل المقاومة من تحرير متدحرج للأرض كانت ذروته في العام ألفين وما تلاه بعد سنوات ست في عدوان تموز وما أظهرته هذه الحرب من قدرة للمقاومة وليس فقط على تحرير الأرض بفعل القوة وإنما أيضاً صدق الوعي الغربي صدمة كان أثرها الدفع باتجاه تحريره من ذلك الوعي الزائف الذي عملت إسرائيل على إيجاده.

لقد حملت انتصارات المقاومة في لبنان رسالة مضادة مفادها: بلى نحن قادرون، فإذا كانت إسرائيل قد عملت ولنصف قرن من الزمن على تكريس هذا الوعي القاضي بعجز العرب وقدرة إسرائيل، وتخلف الواقع المحيط وتفوق العقل الإسرائيلي، فإن الرسالة المضادة التي حملتها انتصارات المقاومة في لبنان قد نسخت جهود نصف قرن من الزمن وأبطلت كل ذلك الوعي الزائف الذي عمل على ضخه في مجتمعاتنا.

لقد أثبتت المقاومة بالتجربة أننا قادرون على هزيمة إسرائيل، وأن هذا الكيان قابل لأن يهزم وأن العقل المقاوم قادر على منازلة العقل الإسرائيلي، وأنه قادر على التفوق عليه في ميادين شتى عسكرية وإعلامية واستخباراتية..، لقد أبطلت انتصارات المقاومة أكذوبة تفوق العقل الإسرائيلي، وأصبح بالإمكان هزيمة إسرائيل، والتجربة بل التجارب المتكررة خير دليل، إذا ما توفرت الإرادة الجادة والمخلصة والمتحررة من أثقال كل ذلك الزيف السياسي والإعلامي والثقافي، والارتهان للخارج الذي عمل على تطويع النظام الرسمي الغربي ليصبح أداة في خدمة تلك الأهداف التي تعمل إسرائيل على تحقيقها.

السؤال المطروح هنا هو:

ما الذي يعنيه انتصار المقاومة؟ وما أبرز النتائج التي تترتب عليه:

- أولاً: إن هذا العقل المجتمعي الذي عمل على تزييف رؤيته وتسميم وعيه قد بدأ يتجاوز حالة الخدر الذي أصابته ومظاهر الأزمة التي اعترته وهو ما كان ليحصل لولا فعل المقاومة والنتائج الذي تترتب عليه، وهذا لا يعني أن كل المجتمعات العربية قد تعافت من مظاهر تلك الأزمة وأن حالة التعافي قد وصلت إلى أوجها.
- ثانياً: إن بالإمكان مواجهة عملية اجتياح الوعي الغربي وأنه من الممكن إنتاج وعي بديل قادر على مقارعة احتلال الوعي والتعدي للغزو الثقافي من خلال العمل على إنتاج ونشر ثقافة المقاومة، بما هي ثقافة تمنح المجتمعات العربية قدرة فعل وفعل حصانة تجمعها عصياً أمام كل ذلك الجهد لترويضها وتسميم وعيها.
- ثالثاً: أن العقل الإسرائيلي – الغربي ليس عقلاً عصياً على الهزيمة، وأن هذا العقل بكل مكوناته يعاني من نقاط ضعف حقيقية في بعده القيمي أو الاجتماعي أو الأوروبي...، وهي نقاط يمكن أن تعمل عليها قوى المقاتومة للنيل من ذلك العدو الإسرائيلي بما يؤدي إلى إضعافه والتأسيس لهزيمته.
- رابعاً: إننا نمتلك الكثير من أسباب القوة الثقافية والفكرية والروحية وغيرها والتي إذا أخذنا بها سيؤدي ذلك إلى استنهاض مجتمعاتنا وقوانا ليشكل هذا الاستنهاض فعل قوة قادرة على مواجهة الإسرائيلي والانتصار عليه، وهو ما تؤكده التجارب العديدة خلال العقود القليلة الماضية.
- خامساً: إن ميزان القوى– ولا نقصد بها المادية– قد بدأ يميل لغير صالح إسرائيل وما نقصده هنا بميزان القوى وما يرتبط بالإرادة القومية بما هي إرادة خلاقة لأسباب النصر والثقافة القومية بما هي ثقافة مقاومة وممانعة قادرة على مواجهة الكيان الإسرائيلي من خلال استحضار جميع الأدوات والوسائل اللازمة في تلك المواجهة.
- إن مجتمعاتنا لا تعزها الإمكانيات لمواجهة إسرائيل بقدر ما يعوزها الوعي الأصيل والإرادة الصلبة، وهما إن حصلا يصبح تحصيل الدوات والوسائل أمراً أقل يسراً وسهولة وإن فقدا فلن يغني عن توفير الكثير من إمكانيات القتال والمواجهة.
- سابعاً: إن المقاومة قد قدمت لجميع العرب والمسلمين النموذج الصالح الذي يمكن أن يحتذى ويبنى عليه، هذا النموذج الذي أثبت بالميدان والتجربة أننا قادرون؛ وأنه ما علينا كعرب ومسلمين إلا تعميم هذا النموذج

وتعميقه والاستفادة منه في مواجهة كل الاحتلالات التي تعاني منها امتنا سواءً كانت عسكرية أو ثقافية أو سياسية وغير ذلك في سبيل استعادة هذه الأمة لدورها وموقعها وعافيتها.

إن المقاومة بفعلها وانتصاراتها في الوقت الذي عملت فيه على بعث الإرادة في شرايين مجتمعاتنا العربية والإسلامية فإنها كانت تعمل بذلك على إضعاف الإرادة القومية للكيان الإسرائيلي وإصابتها بالوهن وأن ما أرادت إسرائيل أن تصيبها فيه قد انتقلت عدواه إلى الإسرائيلي نفسه باعتبار أن منطق التدافع القومي والأممي يمتكل فعلاً ولديه أثر ونتيجة أي أن المقاومة عندما تثبت أننا قادرون على الانتصار هدا يعني أن العدو يمكن أن يهزم وإذا أثبتت قدرتها على بعث الإرادة وتثويرها في ساحة الصراع فهذا يعني قدرتها على إصابة الإرداة القومية للعدو بالوهن وإذا أثبتت تفوق عقلها فهذا يعني إمكانية التغلب على العقل الآخر.

لقد أظهرت المقاومة خلاقية العقل الذي تملك وقدرات هذا العقل في ميادين المواجهة، هذه المواجهة التي اختزلت الصراع الحضاري بكل مكوناته بين ثقافة المقاومة وقيمتها ومنطقها وفكرها من جهة وبين ثقافة الاحتلال ومنطقه وجذوره الاستعمارية من جهة أخرى، هذه المواجهة التي تمتد في التاريخ وتتبدى في الحاضر ولسوف تفصح أكثر عن نتائجها في المستقبل؛ إن أمة تأخد بأسباب قوتها الروحية والمعنوية والثقافية وغيرها... لهي أمة قد اختارت لنفسها موقعها الرائد ودورها الفاعل في نهر التاريخ، وإنها في الوقت الذي تعبر عن نفسها وقيمها وتاريخها من خلال فعلها وتحديداً فعل المقاومة فإنها بذلك تعمل على تفعيل تلك القيم وتعميق تلك الثقافة وتنمية ذلك الفكر ونشر الوعي وتعميم النموذج الذي سوف يبقى يراكم على نفسه في فعل جدلي يقود أكثر فأكثر إلى استحضار جميع أسباب القوة القادرة في زمن ما على تصديع أسس ذلك الكيان وقدرته على الاستمرار.

لقد أثبتت المقاومة- بما هي تعبير عن ثقافة وتاريخ وقيم- قدرتها على الانجاز الحضاري، التي لا تتبلور وتظهر كما تظهر في ساحة الصراع، حيث تصفح بذلك عن قوة النموذج الذي تقدم، ووهن النموذج الآخر وهي معنية بالمراكمة على إنجازاتها حيث لا يعوزها إلا الأخذ ببعض أسباب القوة المادية التي أن توفرت لها إرادة صلبة وثقافة أصيلة وعقل خلاق وإيمان متجذر؛ فإنها لن تتأخر في تقديم التجارب الناجحة والإثبات تلو الآخر ان عدونا قد بدأ يفقد قدرته وأنه بدأ ينحدر في سلم التاريخ، وأن أهم السمات الحضارية لهذه الأمة في تاريخها المعاصر هي المقاومة وأن أعظم إنجاز حضاري لها عندما تستطيع تسجيل الانتصار الأكبر على هذا الكيان.